نظرة في أدب

الدكتور منصور عيد

أولاً: شخصية منصور عيد ونشأته:

منصور عيد واحد من أدبائنا المعاصرين المبدعين الذين تركوا آثاراً هامة تشهد لهم بالكفاءة، وبقدرات أكثر من عادية في مجلات الدراسات الأدبية والأعمال الفكرية عامة، وفي الدراسات النقدية وفي مجال القصة والرواية...

أما مبعث هذه القدرات الأكثر من عادية في كل ما كتب، فيعود الى أسباب منها:

1- نشأته في بيئتة خاصة من جنوب لبنان.

2- واختصاصاته المتنوعة:

- أولها: حصوله على اجازة في الفلسفة والعلوم الاجتماعية.
- وثانيها: حصوله على شهادة الدكتوراة في الأدب العربي.
- وثالثها:ممارسة التعليم في مجال الأدب والفلسفة.

ثم تفرغه للتعليم الجامعي والدراسات والأبحاث، ومشاركته في نشاطات أدبية متنوعة...

هذا بالإضافة الى كفاءة ذاتية أصلية تشكل نوعاً من الأستعداد الطبيعي تضاف إليها ثقافة واسعة كانت الأساس لكل هذه القدرات الأكثر من عادية، كما أشرت.

أما البيئة التي نشأ فيها، فطالما حدثني وحدثته عن بيئتنا الجنوبية بما فيها من مزايا التنوع، والتعدد، والتواضع، والتسامح، وليونة الطباع، وهدوء المزاج، وبعد النظر... في نوع من الاعتداد بالنفس وحب التعاون، والعزة والشعور بالكرامة... والانفتاح على مختلف الثقافات دونما حرج، ولا ضيق بالأخرين، ولا خصومة لمن يخالفنا في الرأي...وذلك كله على شعور وطني عميق، وتمسك بالأرض وحفظ للجوار. واهتمام بالعلم، وذكاء فطري يتحدث عنه الباحثون. وغير ذلك من الصفات التي لا تعد ولا تحصى.

على هذا النحو عرفت منصور عيد، وعندما اطلعت على أدبه وجدته ينضح بكل هذه المفاهيم والقيم... فكان قريباً جداً مني، وكنت قريباً جداً منه.

واليوم، وبعد أن خضعت لإرادة الدهر بالبعاد، فإنني ما زلت أحتفظ بما أعرفه عنه، وأتحدث به، ليس في مزاج هوائي متقلب وإنما انطلاقاً من دلالات ماثلة لعيني، ولكل عين.

وبعد أن أعدت النظر في مؤلفاته، وجدت فيها ما يأتي وباختصار شديد، كما يقتضي المقام:

ثانياً: موضوعاته الأدبية:

1- في الرواية والقصة.

منصور عيد، وبناءً على ما تقدم من شهادتنا فيه. كان أديباً ملتزماً، وصاحب حب رسالة تربوية تعليمية واجتماعية وانسانية... كما يكون كل مفكر أو أديب ذي ضمير حي، وصاحب شعور بالمسؤولية الاجتماعية، ويشعر في قرارة نفسه بأنه عضو في مجتمع يستحق خدمة أبنائه جميعاً، وحرصهم عليه، وسعيهم الى ما فيه تطويره وبناؤه بناءً سليماً، واصلاحه... بمقدار ما يستطيع الفرد، وبمقدار ما يكون له من تأثير في المجتمع.

ورأى منصور عيد في مجتمعه قضايا كثيرة تحتاج الى معالجة وإصلاح، فسلك طريقاً بدأه بالقصة القصيرة، وثنّى بالرواية، وكانت له في هذا المجال آثار عديدة، اختار موضوعاتها قضايا لبنانية خاصة. كما اختار بعضها الآخر من موضوعات إنسانية عالمية، وذلك على النحو الآتي:

1- في روايته "غداً يزهر الثلج" تحكي هذه الرواية قصّة القضية الأرمنية، وما عاناه الشعب الأرمني أثناء المحنة التي حلت ببلادهم على يد الأتراك، وتركز بعد ذلك على السياسة السوفياتية آنذاك في تلك البلاد، والمعاملة التي عانى منها الناس كثيراً بعد العودة الى وطنهم بعد النكبة، والجرائم الإنسانية التي ارتكبتها تلك السياسة في حق شعب آمن مظلوم.

والغاية من هذه الرواية – كما رأيناها- التأكيد على النصر الآتي من غياهب الظلام، ومن تحت الثلج المتراكم الذي لا يمنع الأزهار من أن تخرق الحواجز. وترفع رأسها في السماء للشمس استجابة لقانون الحياة، وتحدياً لكل من يتجاهل هذا القانون.

لا يقف الكاتب في هذه الرواية عند قضية الشعب الأرمني، وإنما هي بالنسبة له قضية إنسانية عامة، وقضية كل شعب مقهور سواءً في أرمينية أو أي مكان آخر. كما يشجب الظلم مهمن كان الظالم، وفي أية بقعة من بقاع الدنيا. ويشعر القارىء وهو يقرأ هذه الرواية بأنه منجذب إليها كقضية إنسانية عامة، على إختلاف الأزمنة والأمكنة.

ولعلّ أهم ما يجب أن نشير إليه هنا هو أن الكاتب لم يتحامل في روايته على أشخاص، وإنما حاول أن يركزعلى نظام عشوائي. وبقي الكاتب ضمن إطار الرأي الحر، والانتصار لقضية إنسانية عادلة.

2- وفي روايته "شرارات الرماد" يصوّر الكاتب معاناة الشباب اللبنانيّ في بيئة تمسك بالعادات والتقاليد التي تميّز ما بين الناس وتفرق بينهم، وتمنع من الالتقاء على قواسم مشتركة بسبب الطائفية.. والمذهبية التي أوقعت هؤلاء الشباب في صراعات نفسية مختلفة ... ودفعت بعضهم الى مواجهة الواقع الطائفي والاجتماعي...

3- أما في روايته "طائر الفينيق" فإن الكاتب يعالج قضية من قضايا الحرب اللبنانية مع ملابساتها الكثيرة، وتحدياتها للشعب بكامل فئاته، ومع ما رافقها من تدخلات كانت تذكي نار الحرب، وتجعل من اللبنانين مجرد وقود لها، وتدفعهم في مسالك وطرق شتى، ويتأذى الكثيرون منهم على غير ما ذنب ارتكبه، أو جناية جناها... ويبحث الكاتب في مشكلة وطن يفهم كل مواطن فيه الوطن على طريقته الخاصّة، حتى تصير الوطنية من بعض نواحيها مرادفة للتعصّب... واستطاع الكاتب أن يمشي في هذا

الدرب، كما استطاع أن يجوزه الى دار الأمان حيث أخفق الكثيرون ممن سلكوا الدرب نفسه. واستطاع كذلك أن يتخطى حدود الزمان والمكان ليبحث في المطلق، ويحدد ثوابت تجعل من الأدب صاحب رسالة، يحمل بين ضلوعه قلباً كبيراً، ويتسع فكره ليستوعب الوطن كله، فلا تستطيع الحدود المصطنعة بين الناس أن تقلل من اهتمامه بالإنسان في نوع من نزعة مثالية تجمعه مع قادة الفكر في كل زمان.

4- ومن هذا الذي قدمناه، ومن كتابات أخرى ومؤلفات سطرها منصور عيد، من مثل (بيروت هل تذكرين) و (بعدك يا بيروت) نستطيع القول:

إن الفكر الوطني عند منصور عيد يشكل عقيدة ثابتة، وشعوراً أصيلاً، تجاوز فيه الكاتب حد الذات، ليخرج الى القضايا العالمية التي تجعل حب الأوطان من الإيمان ويجعل الانفعال بالقضية البعيدة كالانفعال بالقضية القريبة، حتى يختلط الذاتي بالإنساني، ويبيّن مدى تسامي هذا الذاتي ليصير إنسانياً عاماً.

5- وما كان منصور عيد وطنياً في فكره فقط، بل كان وطنياً وانساناً في تصّرفاته ومبادراته الكريمة ومنها واحدة على سبيل المثال، عندما قدّم دارته في بلدته بتدين اللقش لإحدى العائلات الجنوبية، لتقيم فيها خلال حرب عام 2006، وطيلة أيام الحرب المشؤومة.

6- وفي دراساته وأبحاثه الأخرى كان منصور عيد يعالج قضايا إنسانية عامة اجتماعية ونفسية، وحضارية وثقافية في محاولات لتحليل، واستخدام هذا التحليل في الحياة العملية، كما في بحثه عن العنف المنشور في كتاب: العنف: حقائق وقضايا.

ولا تستغرب ذلك منه، فهو مجاز في الدراسات الفلسفية والإجتماعية...

وفي بحثه هذا فيض من التحليل، والنظريات الفكرية والتربوية الي تدل على أنه أديب وباحث اجتماعي بارع، وحبذا لو يطلع المربون على هذا البحث...

رابعاً: منصور عيد الشاعر (ألحان الكروم):

في تعريف الشعر أنه من الشعور، بمعنى أنه تعبير عن المشاعر الإنسانية المختلفة. مما يدلنا على خاصتين من خصائص النفس الإنسانية: أولاهما الشعور وهو الذي يجمع العواطف كلها، على اختلاف أنواعها، واختلاف درجاتها وهذا ما جعل الشعور ركناً أساسياً من أركان النفس الإنسانية، ونجد هذا الركن ماثلاً في كل موقف، وفي كل عمل، وعند كل تجربة يمر بها الإنسان في حياته. والثانية: أن هذا الشعور كالبذور التي تكمن في الأرض حتى يأتي الوقت المناسب، فإذا بها تشق تلك الأرض، وتذلل صعوباتها مهما كانت تلك الصعوبات، وتنبت حتى في الصخور وشقوق الأرض...

ونفس الإنسان الشاعر كتلك التربة التي تحوي تلك البذور، فإذا جاء الوقت المناسب نبتت شعراً، واشتعلت تلك النباتات أزهاراً وأقماراً تأخذ بجامع القلوب.

وفي الشعر فيض خواطر، ودفق عواطف، وصدى ترانيم قدسية تملأ النفس، ويعبّر عنها الشعر فتأنس بها نفسه، ويهندسها عقله، وتهذبها معارفه وثقافته فيأتي هذا الفيض إبداعات، وتحفاً، ورسوماً جميلة...

والشعر عند منصور عيد مشاعر تضج في وجدانه وفي أذنه ويراه في كل منظر جميل، وفي كل موقف إنساني في شعاب الكروم، وفي المنحدرات ومهابط الوديان، والتلال حتى منتهى المدى المغرّب نحو الأفق(مقدمة ديوان ألحان الكروم صفحة 10).

وهو عنده أيضاً صور خارجة عن المعادلات المادية وخاض الشاعر منصور عيد تجربته الشعرية في ديوان واحد . واحداً سمّاه "ألحان الكروم" ولم يسمح العمر بعد ذلك بتكرار هذه التجربة.

ويتحدث الشاعر عن تجربته الشعرية فيصف ذلك وصفاً دقيقاً في مقدمة الديوان فقد كانت تجربة فيها من التحدّي للشعر أولاً، ومن التحدّي للنفس ثانياً، كما فيها من محاولة التعبير عن عواطف جمّة، تجمعت في خزان النفس، كما تتجمع ميا المطر في حوض باطن الأرض حتى يضيق عنها هذا الحوض. فإذا بالماء تفتش عن المساربّ، وتندفع جداول وأنهاراً تنبت عن جوانبها النباتات والأزاهير الجميلة، وتنمو هذه الأزاهير وتبثّ عطرها في كل مكان، وأول الأنسين بهذا العطر هو صاحبها، كالفلاح الذي يأنس بنتاج الأرض، ويحس بالأمن، والأمان، والطمأنينة عندما يرى ذلك النتاج. وإن كان لا ينسى معاناته التي مرّ بها أثناء الزرع ، وأثناء انتظار المطر، ونمو النباتات، وأثناء الزهر، وانعقاد الأزهار، ونضجها، وحصادها... وكلها مراحل شبيهة بما مرّ به منصور عيد في أثناء تجربته الشاعرية، وبكل ما يمكن في كل مرحلة من الأحاسيس، وما تعتمل به النفس في كل مرحلة منها.

أما أول بدء التجربة الشاعريةفكانت:

1- أحاسيس تراود الشاعر أثناء "هروبه النفسي" من كل ما يحيط به.

2- وهذا الهروب كان يسرح في محطات عديدة، بين منزله الصيفي في بلدته بتدين اللقش وكل مكان جميل يقصد إليه في ذلك الجبل الرائع الذي ملأ حواس الشاعر بالجمال.

3- وكان هذا الهروب يعبر عن "خشية من الخوض في التجربة الشعرية"

4- الا ان هذه التجربة كانت تشغله أينما ذهب وفي أي مكان يحل فيه(مقدمة الديوان صفحة 10) مع أنها "كانت محفوفة بالحذر والقلق".

5- وكان شاعرنا يرفض الإدعاء بأنه شاعر.

6- ثم ساعدته آراء بعض الأصدقاء على تثبيت الثقة بالنفس نتيجة ملاحظاتهم وآرائهم في ما كانوا يسمعون من شعره...

7- ثم " انفجر بركان الموسيقى دفعة واحدة"

8- وكانت نتيجة الانخراط في سلك الشعراء "ترسيخ الرغبة في الإقدام" وعدم العدول عن هذه التجربة.

9- وثمار هذا الانخراط في سلك الشعراء العزوف مؤقتاً عن القصة والنقد والتحليل والمحاضرات والبحوث...

10- ثم كان دفق للأنغام بشغف، جعله يشبه حالته بحالة أرخميدس، ويصير بيت الشعر أو القصيدة يهتدي اليها الشاعر بمثابة الاهتداء الى معادلة علمية عظيمة تغيّر من مسير الحاضرة الإنسانية،

كأكتشاف أرخميدس.وهنا يقيم الدكتور منصور عيد مقارنة بين القصيدة والمشاعر الإنسانية يعبّر عنها الشاعر والتي تخرج عن المعادلات المادية، كما يخرج عن المحسوس الملموس الى عالم الرؤية التي تنجتها الحالة الشعرية عند الملهمين، وبين المعادلات الحسابية على اختلاف أنواعها.

11- ويتحدث الشاعر عن معاناته مع نظم الشعر، وإهتمامه بالموسيقى الشعرية، وهي عنده اساس مهم من اسس العمل الشعري ويبوح للقارىء بتلك المعاناة بقوله: "وكثيراً ما كانت تتعبني القافية فأشعر بالملل والتردد".

12- على أن قوة التجربة الشعرية نفسه وإلحاحها عليه كانت تأبى عليه الأستسلام للتعب العارض، ويرفض "أن يستسلم لجفاف بعض الالفاظ وغرابتها".

13 -وينم هذا الشعور بجفاف بعض الألفاظ وغرابتها عن ميزة عند الشاعر، وهي " رفضه التغرّب عن الحياة التي نعيشها وتنمو فينا" مما يقتضي منا – نحن الأدباء والشعراء- أن نسعى باستمرار الى التجديد والتطوير"

14- أما مظاهر هذا التطوير فهي أن الشاعر بات "يلاعب دمج التفعيلات المكوّنة للأوزان مع الاستسلام الى سحر النغم، والمحافظة على سلامة البحور الشعرية" التي أعتمدها في شعره.

هذه حكاية التجربة التي خاضها د.منصور عيد في نظمه للشعر.

أما نتائجها فكانت الخشية من خروج هذه التجربة قبل أن تنضج مواسمها.

والحكم على هذه التجربة، وبسبب وقوف النقاد للشعراء بالمرصاد – وكان شاعرنا يعرف ذلك- فاوجس في نفسه خيفة من سخط الأقلام، وبخاصّة عندما تكون غير عادلة، فاستبقى تلك المواقف كلها بموقف واضح كل الوضوح، يتمثل في ثلاثة أمور:

الأول: استباق الأحكام بالاقرار بأنها التجربة الولى، وهو يعلم أن كل تجربة أولى تعقبها تجارب غيرها، وفيها يستدرك الشاعر ما فاته من الأمور، أو التبس في ذهنه، أو أخفق في تحقيقه...

والثاني: أنه حكّم نفراً من الأصدقاء في ما كان ينتجه من الشعر وبعد كل تجربة شاعرية، وكانوا يقدمون ملاحظاتهم عليه."الصفحة 10 من مقدمة الديوان"

أما الثالث: فهو تقبل النقد الأدبي مهما كان، ووعد باحترام تلك الأراء، وأنه سوف يكون راضياً عنها وسعيداً بها.

ويقيم الشاعر أثر تلك التجربة عليه فيقول إنها منحته حالة من الأمان النفسي، ومن السعادة التي لا تحد بحسابات مصرفية، وشبّه تلك الحالة بأنها "أقرب الى النشوة التي تحمل الإنسان الى خارج هذا الكون لتلقيه في حضن الكائن الأسمى الذي نحاكيه بوجداننا، وأشواقنا، وأحلامنا."

ولكي نفهم وجهة نظر الشاعر في تجربته الشعرية تلك، فكل ما في الديوان ينضح بها، وأختار منه (من الديوان) ما اختاره الشاعر ليكون عنواناً لديوانه "ألحان الكروم" حيث يقول:

وشوشاتُ في ورقْ كلما النسم مرقْ

رفرفات في الغصون مثل رجفات الجنون

وارتقاص في الجذوعْ فوحها عطر يضوعْ

وارتجاف في الجلود وانسياب في القدودْ

يالصّرارٍ رجيزْ يملأ الغاب ازيزْ

ولنمل بارحِ في النواحي سارحِ

ولنحلٍ في الجنى لم يبارح طيبنا...

وكأنما كتب الشاعر هذه القصيد لتغنى.

وتتوالى المشاهد في القصيدة، وفي صور متعاقبة، تنقلك من حال الى حال، في سرعة، ولباقة... مغمسة بروح طيبة، وروْح من جنان الدنيا، تكاد تشبه رياض الجنة، حيث ينعم الشاعر عليه الرحمة في نعم الله، أنساً بما لا يأنس به أهل الدنيا، وكثيرون منهم ما شمّوا رائحته عن بعد...

وأتساءل: هل أن الشاعر ما زال يخطر بباله أن يقول الشعر، وهل هو يقوله فعلاً؟! وأظن أنه في نعيمه في غنى عن النظم، ويشغله التأمل في نسق تلك الجنان التي خسئت أقلامنا عن أن تكتب مثلها وتوفيها حقها.

ولن نسترسل في النقد، وإن كان في ما قرأناه مجالات كثيرة للوقوف عندها.

رحم الله شاعرنا

الذي ترك في نفوسنا مشاعر لا تحّصى، وكانت له مواقف لا تنسى.

د.صادق مكي